

الشعر ذو الاعمدم

— ٥ —

بقلم الأستاذ صارو المملوك

البيت الخامس لربيعه الرقي

لوقيل للعباس يا ابن محمد قل - لا - وانت مخلد ما قالها
وهذا البيت من قصيدة رنانة قالها في مدح العباس بن محمد
ابن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وبعده :

ما ن اعد من المكارم خصلة

الا وجدتك عمها أو خالها

واذا الملوك تبايروا في بلدة

كانوا كواكبها وانت هلالها

إن المكارم لم تزل معقولة

حتى حلت براحتيك عقالها

ولهذه القصيدة خبرو ذلك ان ربيعة لما مدح العباس بها بعث
العباس اليه بدبشارين جائزة وكان ربيعة يقدر فيها النبي دبشار
فلما نظر الى الدبشارين كاد يمين فيظأ وقال للرسول خذها فها لك
على ان ترد المارقة الى من حيث لا يدري العباس ففعل الرسول
ذلك فاخذ ربيعة الرقعة وامر من كتب في ظهرها :

مدحتك مدحة السيف المحلى

لتجري في الكرام كما جربت

فهيها مدحة ذهب ضياء

كذبت عليك فيها واقتربت

فانت المرء ليس له دواء

كأنى اذ مدحتك قد رثيت

ثم دفعها الى الرسول وقال له ضعها في محام فردها الرسول
واطلم العباس على الابيات فغضب وتوجه الى الرشيد وقال
له ان ربيعة قد هجانى فاحضر الرشيد ربيعة وهم يقتله فقال له
ربيعة والله لقد مدحتك بقصيدة ما قال احد مثلاً في الخلفاء

وانشده اياها فقال الرشيد وكم اثنك عليها قال دبشارين
فغضب الرشيد على العباس وانفت اليه فقال سرأة لك اي حال
قعدت بك عن اثنائه الاموال فوالله لقد مولتك جهدي
وما قطعت المادة عنك وان اصلك من قد عرفت ولكنك
اتبعت نفسك فقعدت بك عن المكارم وفضحتك ثم قال يا سلام
اعط ربيعة ثلاثين الف درهم زخمة واحمله على بغلة وقال
لربيعة بحياتي عليك لانتذكره بشرك لا تعريضاً ولا تصريحاً
وكان الرشيد قد هم بان يزوج ابن العباس ابنته ففتر عنه بعد
ذلك لاطلاعه على بخله وشدة حرصه . ولم ينل العباس ذلك
الشرف حتى مات في سنة ١٨٢ هـ

وربيعة هذا هو ابو سامة ربيعة بن ثابت الرقي نسبة الى
الرقية — بفتح اوله وتشديد ثانيه — وهي المدينة المشهورة
على الفرات من جانبه الشرقي وكانت تعرف بالرقية البيضاء
وفيها بقول ربيعة :

بالرقية البيضاء وفيها بقول ربيعة .

حبذا الرقية داراً او بلد

بلد ساكنه ممن تود

ماربنا بلدة تعد لهم

لاولا اخبرنا عنها احد

انها برية بحرية سورها بحر وصور في الجدد
تسمع الصلصل في اشجارها هدهد البر ومكاء غرد
لم تضمن بلدة ماضمت من جمال في قرش واسد
وأصل الافظ كل ارض الى جنب واد ينبسط عليها الماء وجمعها
رقاق وقيل الرقاق الارض اللينة التراب ويقول الاصمعي انها
الارض اللينة من غير رمل .

وكان ربيعة من موالي بني سليم على الاشهر وقد وجدت
محمد بن معاوية الاسدي يقول ليس ربيعة من موالي سليم بل
هو من بني جذيمة بن مالك بن نصر بن قمين وفي نسبة كلام
آخر وكان ربيعة ضريراً ومدح المهدي العباسي بعدة قصائد
ثم كان الرشيد بأنس به وله معه ملح كثيرة وكان ربيعة من
المكترين المجيدين وانما اخمل ذكره واسقطه عن طبقة من
الشعراء بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة

الشعراء وحسبه ان يقول ابن المعتز فيه كان ربيعة شعر
غزلا من ابي نواس وفي ظم وفاته خلاف ويحدد ذلك ما بين
سنتي ١٨٠ و ١٩٣ هـ وببيت ربيعة الذي استشهدنا به وشرحناه
منظور فيه الى قول الفرزدق في مدح الامام زين العابدين
عنى بن الحسين عليه السلام وهو :

ما قال لا قط الا في تشهده لولا الشهد كانت لاؤه نعم
وقد تناول الشعراء هذا المعنى فقال ابو محمد الخازن :

نعم تجنب لا يوم العطاء كما تجنب ابن عطاء لشغة الراء
وقال اسماعيل بن احمد الشاش :

ما قال لا قط منذ حلت تمامه بخلا بها فوجدنا الجود في البخل
وقال بعضهم في قثم بن العباس

لم بدر ما لا وبلي قد دري فعاظها واعماض عنها نعم
وقال الآخر مادحاً :

وبشرت امري واعنيت بحاجتي واخرت لا عني وقدمت لي نعم
وقال آخر :

أبي جوده لا البخل واستعجالات به نعم من فتى لا يمنع الجود قائله
وقد قال الزمخشري في احاجيه عند ذكره هذا البيت
فامض مارابت احداً فسرره وحكى بونس عن عمرو بن العلاء
انه جر البخل باضافة لا اليه واورده ابو علي بنصب البخل
وزعم انه مفعول ابي وان لازائدة، وحكى ذلك عن ابي
الحسن الاخفش ثم قال واما بقية البيت فلم يفسره احد وهو
مشكل . وقد فسر بعض القدماء فقال في معناه انه مدح
لكريم ابي جوده ان ينطق بلا التي للبخل واستعجلت بجوده
نعم اي سبقت نعم لا صادرة من غني لا يمنع والهاء في قائله
تعود على نعم أي قائل نعم لا يمنع الجود . ثم اكثر الشعراء من
القول في لا فقال احدهم بهجوا بخيلاً :

تعود من بخله قول لا فما يلفظ الدهر إلا بلا
وما هلك الله يرجو الثواب ولكن من حب لا هلا
وقال آخر في مثل ذلك :

فاذا سئلت تقول لا . وإذا سألت تقول هات
تأني فمال الخير لا تسقى وانت على الفرات
لا فلا تيميل الى نعم او ترك لا حتى الميات

وقال شاعر في مدح لا :

اجتمع الناس على ذم لا غيري فاني موجب حق لا
وذاك اني قلت يوماً له تحب غيري سيدي قال لا

اما سليمان بن عبد الله بن طاهر فقد قال :
في كل شيء سرف يكره حتى في الكرم
ورب لا نقولها افضل من الف نعم
ومن الحكم قول الآخر :

إذا قلت في شيء نعم فاته فن نعم دين على الحر واجب
ولا فقل لا تسرح وترح بها اثلا بقول الناس انك كاذب
وقد وصل الينا قول بعض المتأخرين :

ومليح تكامل الحسن فيه لشقاء المحب سمي بلا لا
كل ما رام منه نيل مراد لا تراه يحجب إلا بلا لا
وأحسن الآخر إذ قال :

لا تقولي لا فتكتوب على وجهك المشرق نوراً نعم
بحروف كتبت من قدرة ما جرى قط عليهم قلم
نونها الحاجب والعين بها طرفك الفسك والميم الفم
وليكن آخر من نذكر قوله في لا ابن الوردي الذي قال :
نمت وابليس أنى بحيلة متعدي به
فقال ما قولك في حشيشة متخبي به
فقلت لا قال ولا خمرة كرم مذهبه
فقلت لا قال ولا مليحة مطي به
فقلت لا قال ولا اغيد بالبدر اشتبه
فقلت لا قال ولا آله لهو مطربه
فقلت لا قال فقم ما أنت إلا خشية

وكما ورد ذكر لا في الشعر كثيراً فكذلك كان لها ذكر
في النثر ومن أمثلة ذلك قول ابي الحارث ليحيى بن خالد
البرمكي قبح الله لا كأنها منشجب من حيث لقيته ، وقول
الكندي الفيلسوف قول لا يدفع البلا ، وقول نعم يزبل النعم
وقول المهلب لا بقة عبد الملك اياك والسرعة عند مسألة بنعم
فان اولها سهل في مخرجها وآخرها ثقيل في فمها واعلم ان
لا وان قبحت فرما روت وقول احد الحكماء لو لم يكن من
فضل لا إلا انها افتتاحت كلمة التوحيد لكان كافياً .